رفاعة رافع الطهطاوي
(1873 - 1801)

من الرحلة :

الفصل الثالث عشر

(في ذكر تقدم أهل باريس في العلوم والفنون والصنائع ، وذكر ترتيبهم ، وايضاح ما يتعلق بذلك)

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة « باريس » أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهي حكماء«باريس» بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا ، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : إن سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجارب ، معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : « الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها » .

وأما أغلب العلوم والفنون النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية ، خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يموهونها . ويقوونها ، حتى يظهر للانسان صدقها وصحتها ، كما فى علم الهيئة مثلا ، فانهم محققون فيه : وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له .

ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات غير أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان

ردها ، وسيأتي لنا كثير من بدعهم ، وننبه عليها فى محالها ان شاء الله تعالى .

وانما نقول هنا : ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث ، من الخلاف الذى ذكره صاحب متن السلم فى الاشتغال بعلم المنطق ، فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل « باريس » ديار ... شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح ... أما هذا وحقكم عجيب !

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها ، فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا ، فهي غير متشابهة . واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها .

وأما كتب الفرنسيس فلا شيء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش الا نادرة ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه،فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى افهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ ،

فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع مثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب ، فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك ، ثم ان الفرنسيس يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف ، ويتشوقون الى معرفة سائر الأشياء ، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة اجمالا لسائر الأشياء ، فليس غريبا عنها ، حتى انك اذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون ، ويتنازعون فى بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفالهم فانهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعانى الغر وهو مراهق وافتض أبكار الفنون وليدا

فانك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا ، فيجيبك بدلا من قوله لا أعرف أصل هذا الشىء بما معناه « الحكم على الشىء فرع عن تصوره » ونحو ذلك ، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق .

والعادة أنهم يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالبا فى عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان فى سن العشرين ، ولم يبلغ درجة التدريس ، أو يتعلم صنعته التى يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون

غاية التمكن ، وهذا السن فى الغالب تظهر به براعة الانسان وحسن طالعته ، كما قال الشاعر :

اذا ما أول الخطى أخطا فما يرجى لآخره انتصار
اذا جاز الفتى عشرين عاما وما بلغ المراد فذاك عار

فكان هذه (١) السن عند سائر الأمم سن انتهاء المناجب ، فانظر الى الأخضرى فانه فى سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير فانه فى دون العشرين بيسير صنف مجموعه فتورك (٢) على قول الأخضرى :

ولبنى احدى وعشرين سنه معذرة مقبولة مستحسنه

بأنه وهو فى دون ذلك السن ألف فى أصعب من ذلك المقام . وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الافرنج .

وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيرا من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فان هذه عندهم هى أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقاء ، ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس انما هم علماء فى الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ، وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية ، التى من جملتها علم الأحكام والسياسات .

ومعرفة العلماء فى فروع الديانة النصرانية هينة جدا ، فاذا

---

(١) فى الأصل (هذا) .
(٢) تورك : اعتمد .

قيل في فرنسا : هذا الانسان عالم لا يفهم منه أنه عالم في دينه ، بل انه يعرف علما من العلوم الأخر [ى] ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا ، عن كثير منها ، وان الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بنى أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية ، وبعض العقلية كعلوم العربية ، والمنطق ، ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما في الزيادة فانها لا تمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا ، فانهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسائط ، أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا ان شاء الله تعالى .

ومما يستغرب : أن في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، مزاجهم كالعرب في الغزل بالأشعار الحربية . وقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته بقوله :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى ... والنقع ليل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضة ... وأنا وأنت بظله نتنعم

وقول الآخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت
برشقة من نبال الأعين النجل (١)

(١) عن نجلاء : واسعة جميلة .

ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى
باللمح من خلل الأستار فى الكلل (١)
ولا أخل بغزلان تغازلنى
ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل (٢)

ولنذكر لك مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، ونحو ذلك لتعرف به مزية الافرنج على غيرهم .

فمن خزائن الكتب : الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما امكن الفرنساوية تحصيله من الكتب في أى علم كان بأى لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ، ثم ان المصاحف التى عند الفرنساوية فى خزائنهم غير مهانة ، بل هى مصونة غاية الصون ، وان كان عدم اهانتها حاصلا غير مقصود ، غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك . وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة « باريس » ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى اختارها للترجمة ثم ترجمها ، وضم اليها قواعد الاسلام ، وبعض شعبه ، وقال فى كتابه : انه يظهر له أن دين الاسلام هو أصفى الأديان ، وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان .

ومن خزائن الكتب : الخزانة المسماة خزانة « مسيو » وتسمى خزانة « الأرسنال » (٣) ومعنى « أرسنال » (ترسانة) وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتى ألف مجلد

(١) الغيل . الشجر الكثير الملتف ، والغل : جمع غيله ، وهى القتل خدعة .
(٢) الكلل : جمع كلة ، وهى الستر الرقيق .
(٣) Arsenal la Bibliothéque.

مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار ، خصوصا الأشعار الايطالية ·

ومنها : خزانة « مزارينه (١) » ، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة ·

ومنها : خزانة « الأنسطيطوت » (٢) اى دار العلوم ، وفيها خمسون ألف مجلد ·

ومنها : خزانة المدينة ، وهى نحو ستة عشر ألف مجلد ، وهى دائما فى الزيادة ، وكتبها آداب ·

ومنها : خزانة بستان النباتات (٣) ، وفيها عشرة آلاف مجلد ، فى العلوم وفيهـــا خزانة الرصـــد السلطانى ، وفيهـــا كتب علم الهيئة ·

ومنها :خزانة مكتب الحكمة · ومنها خزانة « أكدمة (٤) الفرنسيس » وهى خمســة وثلاثون الف مجلد ، وكل هذه خزائن موقوفة ·

وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدا : فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد فى كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد · وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد · وقد تنيف عن ذلك ولا حاجة لتسميتها هنا ·

ولكل انسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود انسان « بباريس » من غير أن يكون تحت

---

(١) Mazarine.
(٢) Bibliotheque de L'Institut.
(٣) La Bibliotheque du Jardin des plantes.
(٤) Bibliotheque de L'Academie Française.

ملكه شىء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة · وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التى تتعلق بالفنون ، كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك ، ففى « باريس » كثير من الخزائن التى يقال لها « خزائن المستغربات » (١) ، فيوجد بها ما تتشوق اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص فى الطبيعيات كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة ، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التى فيها آثار القدماء ·

وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الانسان يدرس ما يراه فى الكتب ويقابله ، فان رآى فى كتاب تعريف حجر كذا ، وحيوان كذا · وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة فى الكتب . وانفع الأشياء بالنسبة للطبيعيـــات بمدينة « باريس » البســـتان السلطانى المسمى « بستان النباتات » وفيه سائر ما يعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغريبة ، ويزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التى يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ويقابلون ما فى الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه فى نحو ورقة ، ويكتبون اسمه وخاصيته · وفيه أيضا سائر مراتب الحيوانات الحية غريبة أو أهلية برية أو وحشية ، فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود ، والسبع ، والضبع ، والنمورة والسنانير الغريبة ، والابل ، والجواميس ، وغنم بلاد التبت ، وزرافة سنار ، وفيلة الهند ، وغزلان البربر ، والأيل ، وبقر الوحش ، وأنـــواع القردة ، والثعالب ، وســـائر أنـــواع الطيور المعـــروفة لهم · وســـائر هذه الحيوانات التى تـــراها حية بهذا البســـتان تراها ميتة ايضا محشوة بالتبن .

---

(١) يريد الطب البيطرى · "Les musées"